أن يجترىء عليها أو يستبيح ذمارها . وبعبارة أخرى إن بعض التحليل قوامه العطف ، وبعضه لايتضح فيه هذا العطف بدرجة كافية . ومن اليسير على العطف أن يسلم القارىء أو الكاتب إلى التبجيل والإعجاب . لم يكن التبجيل والإعجاب عرضين من أعراض المجاملة أو الهوى الشخصى أو العلاقة التى يستحيى منها الكاتب .

على هذا النحو كان العقاد يعامل سيرة العظماء . يجب أن يبرز التحليل بعض جوانب الغرابة . يجب آخر الأمر أن نؤكد هذا المنحى . كان الدكتور طه حسين مولعا بما نسميه الأمانة والتدقيق ، ورد عناصر الحياة إلى أسبابها المعقولة بحيث لاتبدو عليها مناقضة للحقائق الطبيعية . ولكن الأستاذ العقاد له تعقيب . لابد أن نشفع «ذلك» بما يوازن هذه الأسباب والحقائق . لابد أن نشفعه بما يظهر للناس أن تلك الأسباب لاتكون معقولة ولا طبيعية إلا مع هذا العظيم الذى نعالجه . فمعقول وموافق للطبيعة وغير عجيب ولا مدهش أن يعمل العظماء ما عملوا ، ويحدثوا فى تاريخ الإنسان ما أحدثوا .

ولكن لماذا كان ذلك معقولاً منهم وغير عجيب ولا مدهش ، وإن كان فيه العجب كل العجب والدهشة من الآخرين . ذلك لأنهم غرباء عن المألوف لا لأنهم مألوفون يدخلون مع سواد الناس فى نسق واحد . وهذا هو الذى يجب أن يبين . وفى وسعك أن تجادل العقاد نفسه بأساليب مختلفة . ولكن العقاد يريد أن يمزج قدرا من التحرى ، وقدرا من الشاعرية ، وقدرا من الاستبطان والتفلسف فى إطار واحد . هذا هو إطار التعاطف الذى يتوامم مع الدهشة ويخدم اليقظة ، ويجعل من كتابات العقاد خدمة رموز لاتوضيح وقائع وحقائق .

لمثل هذا نفهم ثورة العقاد على نحو من العناية باللغة . قال ابن خلكان يصف ابن الرومى ويقدره : هو صاحب النظم والتوليد الغريب ، يغوص على المعانى النادرة ، فيستخرجها من مكامنها ، ويبرزها فى أحسن صورة ، ولايترك المعنى حتى يستوفيه إلى آخره ، لايبقى فيه بقية . كان العقاد يقدر هذا كله ، ولكنه لايجعله خاتمة المطاف . وربما عجب العقاد كيف يحرص ابن خلكان على أن يجعل لغة ابن الرومى عجيبة وغريبة . أما آن لنا فى منطق العقاد أن نبحث عن العجيب أو الغريب بحثا ثانيا . لم نحرص على أن نجعل اللغة فى بعض الأحيان منافسة للإنسان . هذا ما أنكره العقاد بعقله وقلبه وضميره .